الفصل السادس

الدين والشريعة

الفرق بين الدين والشريعة — الوسائل لمعرفة احكام الشريعة — الفقه — التصوف .

ان كل ما بيناك حتى الآن في الفصول السابقة ، كان عن الدين . وها نحن نريد ان نبين لك الآن شيئاً عن شريعة محمد ﷺ . ولكن ينبغي لك قبل هذا ان تعرف ما هي الشريعة وما هو الفرق بين الدين والشريعة .

الفرق بين الدين والشريعة :

وقد بيناك ان جميع الانبياء الذين ارسلهم الله تعالى ، ما علّموا الناس الا الدين الاسلامي ، وهو ان تؤمن بذات الله تعالى وصفاته واليوم الآخر على الوجه الذي هدى اليه هؤلاء الانبياء ، وأن تؤمن بكتب الله وتصدق بها ولا تتبع إلا ذلك الطريق المستقيم الذي قد اوضحته هذه الكتب ، وأن تتبع رسل الله الصادقين ولا تتبع غيرهم ، وأن توحد الله ولا تشرك بعبادته احداً

ويأتي بعد هذا الدين شيء آخر هو « الشريعة » أي طرق العبادة ومبادىء المعيشة والاجتماع وقوانين ما بين العباد من المعاملات والعلائق والحدود بين الحلال والحرام . فالله تعالى ارسل في بدء الأمر بشرائع مختلفة الى انبيائه مراعياً في ذلك احوال مختلف الامم وازمانها ليُبَوبوا كلا من هذه الامم على حده على الاخلاق والمدنية والثقافة ويهيؤها جمعاء لاتباع « قانون شامل » من ربهم . فلما تم كل ذلك على ايدي مختلف الانبياء السابقين ، جاء في آخرهم سيدهم وخاتمهم محمد ﷺ بذلك القانون الشامل الذي صيغت مواده للدنيا كلها الى يوم القيامة ، فليس الدين الآن ، إلا نفس الدين الذي علمه وهدى اليه الانبياء السابقون ، ولكن نسخت شرائعهم واقيمت مكانها شريعة كاملة لا تختلف فيها طرق العبادة ومبادىء المعيشة وقوانين ما بين العباد من المعاملات والحدود بين الحلال والحرام للناس جميعاً الى يوم القيامة .

الوسائل لمعرفة أحكام الشريعة :

وعندنا وسيلتان لمعرفة مبادىء الشريعة المحمدية واحكامها : القرآن والسنة . أما القرآن فانك تعرف أنه كلام الله وكله لفظة لفظة من عنده تعالى . أما السنة ، فالمراد بها الروايات التي جاءت عن رسول الله ﷺ . فلقد كانت حياة الرسول ﷺ من أولها الى آخرها شرحاً للقرآن وما زال ﷺ منذ بعث الى الناس وجاءه الوحي مشتغلاً بتعليم الناس وارشادهم الى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم مدة ٢٣ سنة متوالية . ففي هذه المدة غير اليسيرة ما زال اصحابه من الرجال والنساء وعشيرته الاقربون وازواجه المطهرات ، يستمعون الى كلامه بغاية من الاهتمام

ويتتبعون اعماله ويستفتونه في كل ما يعرض لهم في حياتهم من مختلف الشؤون والمعاملات ، فتارة يأمرهم بشيء واخرى ينهاهم عن شيء آخر ، فيعي الشاهدون أوامره ونواهيه واحكامه ويبلغونها الغائبين وكذلك اذا جاء النبي ﷺ بعمل خاص ، وعاه عنه الشاهدون وبلغوه الغائبين وكذلك كان اذا اتى رجل في صحبة ﷺ بعمل إما أن يسكت عليه أو ينهاه عنه . فكان الناس يحفظون عنه مثل هذه الامور أيضاً . والذين جاؤوا من بعدهم واتبعوهم باحسان ، حفظوا عنهم كل ما سمعوهم يحدثونه عن رسول الله ﷺ ، ثم دونوا هذه الاحاديث كلها في الكتب مع ذكر اسماء الذين رووها عن رسول الله ﷺ من اصحابه وهكذا اصبحت في أيدي الناس مجموعة كبيرة من احاديث رسول الله ﷺ . واشهر هذه الكتب واكثرها اعتماداً الكتب التي دوّنها الامام البخاري والامام مسلم والامام مالك والامام الترمذي والامام ابو داود والامام ابن ماجه والامام النسائي .

الفقه :

وقد استعرض جماعة من كبار ائمة المسلمين احكام القرآن والسنة ورتبوا بناء عليها قوانين الاسلام المفصلة المنتشرة في الكتب يريدون بذلك تهيئتها بسهولة لعامة المسلمين . وهذه القوانين المستنبطة من احكام القرآن والسنة ، هي التي تعرف « بالفقه » لا يمكن لكل فرد من افراد الامة ان يستنبط الاحكام من القرآن ما لم يكن عنده من العلم بالسنة ما يتمكن به من معرفة احكام الشريعة بنفسه ، فلا يمكن لمسلمي الدنيا جميعاً أن يتبرأوا مما في اعناقهم من الجميل لهؤلاء الأئمة الكبار الذين عانوا المشاق ورتبوا لهم كتب الفقه بعد تحقيق مستمر وجهود مضنية

متوالية . ولا شك انه من نتائج جهود هؤلاء الائمة الكرام ما يجد عامة المسلمين اليوم من السهولة في اتباع الشريعة الاسلامية ومعرفة احكامها .

وقد كان رتب كتب الفقه رجال كثيرون على اساليبهم في بدء الامر ، ولكن بقي في آخر الأمر اربعة مذاهب فقهية ، وهي التي يتبعها اليوم معظم مسلمي الأرض .

١ – الفقه الحنفي : رتبه ابو حنيفة رضي الله عنه بمساعدة ومشاورة من بعض اصحابه كأبي يوسف ومحمد وزفر وغيرهم من العلماء الكبار الآخرين .

٢ – والفقه المالكي : رتبه مالك بن انس رضي الله عنه .

٣ – والفقه الشافعي : رتبه محمد ابن ادريس الشافعي رضي الله عنه .

٤ – والفقه الحنبلي : رتبه احمد بن حنبل رضي الله عنه .

وقد تم ترتيب هذه المذاهب الفقهية الأربعة في القرنين الأولين بعد رسول الله ﷺ ، وأن الاختلافات التي توجد في ما بينها اختلافات فطرية ، فان كل أمر اذا تعرض له عدة رجال وحاولوا ان يعرفوا حقيقته ، فلا بد ان تأتي آراؤهم فيه مختلفة في ما بينهم ولو على قدر يسير . ولكن لما كان الجميع ائمة بررة صادقين ورعين يتبعون الحق ولا يرضون عنه بديلاً ، فالمسلمون جميعاً يعتقدون صدق مذاهبهم وكونها على الحق .

ولكن من الظاهر انه لا يمكن ان يتبع الانسان في أمر من أموره الا مذهباً واحداً من هذه المذاهب الأربعة ، فالذي عليه اكثر علماء المسلمين ان المسلمين ينبغي لهم أن يتبعوا احد هذه المذاهب . غير ان

هناك جماعة من العلماء يقولون بأن لا حاجة الى اتباع مذهب فقهي بعينه . بل يجب على من أُوتي العلم ان يستنبط الاحكام من القرآن والسنة مباشرة ، والذين لا علم عندهم ولا يقدرون ان يستنبطوا الاحكام من القرآن والسنة بانفسهم ، فعليهم ان يتبعوا كل من يرونه على الحق ويطمئنون الى علمه وصدقه وتقواه من علماء المسلمين . فيعرف هؤلاء الجماعة باهل الحديث وهم على الحق مثل الطوائف الأربعة المذكورة .

التصوف :

ان علاقة الفقه انما هي بظاهر عمل الانسان فقط ولا ينظر الا هل قمتَ بما أُمرت به على الوجه المطلوب أم لا ؟ فان قمتَ ، فلا تهمه حال قلبك وكيفيته . اما الشيء الذي يتعلق بالقلب ويبحث عن كيفيته ، فهو التصوف . إن الفقه لا ينظر من حيث صلاتك مثلاً الا هل قد اتممت وضوءك على الوجه الصحيح أم لا ؟ وهل صليت مولياً وجهك شطر المسجد الحرام أم لا ؟ وهل اديت اركان الصلاة كلها أم لا ؟ وهل قرأت في صلاتك بكل ما يجب ان تقرأ به فيها أم لا ؟ فان قمت بكل ذلك ، فقد صحت صلاتك بحكم الفقه . إلا ان الذي يهم التصوف هو ما يكون عليه قلبك حين ادائك هذه الصلاة من الحالة : هل أنبت فيها الى ربك أم لا ؟ وهل تجرد قلبك فيها عن هموم الدنيا وشؤونها أم لا ؟ وهل أنشأت فيك هذه الصلاة خشية الله واليقين بكونه خبيراً بصيراً وعاطفة ابتغاء وجهه الاعلى وحده أم لا ؟ والى أي حد نزهت هذه الصلاة روحك ؟ والى أي حد اصلحت اخلاقك ؟ والى أي حد جعلتك مؤمناً صادقاً عاملاً بمقتضيات ايمانك ؟ فعلى قدر ما تحصل

لك هـذه الامور — وهي من غايات الصلاة واغراضها الحقيقية — في صلاتك ، تكون صلاتك كاملة في نظر التصوف ، وعلى قدر ما ينقصها الكمال من هـذه الوجهة ، تكون ناقصة في نظر التصوف . فهكذا لا يهم الفقه في سائر الاحكام الشرعية الا هل أديت الاعمال على الوجه الذي أمرت به لاداتها أم لا ؟ أما التصوف فيبحث عما كان فيك من الاخلاص وصفاء النية وصدق الطاعة عند قيامك بهذه الاعمال .

ويمكنك ان تدرك هذا الفرق بين الفقه والتصوف بمثل اضربه لك . انك إذا اتاك رجل ، نظرت فيه من الوجهتين : احداهما هـل هو صحيح البدن كامل الأعضـاء أم في بدنه شيء من العرج أو العمى ؟ وهل هو جميل الوجه أو دميمه ؟ وهل هو لابس زياً فاخراً أو ثياباً بالية ؟ والوجهة الأخرى أنك تريد أن تعرف اخلاقه وعاداته وخصاله ومبلغه من العلم والعقل والصلاح . فالوجهة الأولى وجهة الفقه والوجهة الثانية وجهة التصوف . وكذلك إذا أردت أن تتخذ أحداً صديقاً لك ، فانك تتأمل في شخصه من كلا الوجهتين وتحب أن يكون جميل المنظر وجميل الباطن معاً . كذلك لا تجعل في عين الإسـلام إلا الحياة التي فيها اتباع كامل صحيح لأحكام الشريعة من الوجهتين الظاهرة والباطنة . ومثل الذي طاعته صحيحة في الظاهر ولـكن يعوزه روح الطاعة الحقيقية في الباطن ، كمثل جسد جميل الوجه قد فارقه روحه . ومثل الذي في عمله الـكماليات الباطنة كلها وليست طـاعته صحيحة على حسب الوجه المراد في الظـاهر ، كمثل رجل صالح دميم الوجه مطموس العينين أعرج القدمين .

وسهل عليك بهذا المثال أن تعرف العلاقة بين الفقه والتصوف ولكن مما يدمي القلب ويبكي العين أنه لما اصيبت العلوم والأخلاق بالزوال والانحطاط في الأزمان الأخيرة وحدث بزوالها ما حدث من المفاسد والسيئات ، فُقدت عين التصوف الصافية أيضاً وتعلم المسلمون كثيراً من الفلسفات غير الاسلامية من الأمم الضالة وادخلوها الاسلام باسم التصوف واطلقوا اسم التصوف على كثير من العقائد والطرق الأجنبية التي لا أصل لها في الكتاب والسنة . ثم تدرج هؤلاء الناس في تحرير أنفسهم عن قيود الاسلام وقالوا أن لا علاقة للتصوف بالشريعة ، فان هذا في واد وذاك في واد ، وما على الصوفي أن يقيد نفسه بالقانون وأحكام الشريعة . انك كثيراً ما تسمع بمثل هذه الأوهام والترهات من كثير من الصوفية الجاهلين ، ولكن ليست كلها في حقيقة الأمر إلا من قبيل الخرافات والأكاذيب . لا يحل لصوفي أن يتحلل من قيود الصلاة والصوم والحج والزكاة . ولا يحق لصوفي أن يخالف حكماً من الأحكام التي بينها الله ورسوله الكريم ﷺ عن الاقتصاد والاجتماع والمعاشرة والأخلاق والمعاملات والحقوق والواجبات وحدود الحلال والحرام . ولا يستحق من لا يتبع الرسول ﷺ اتباعاً صحيحاً ولا يتقيد بما أرشد إليه من صراط الحق ، أن يسمي نفسه صوفياً اسلامياً ، فان مثل هذا التصوف ليس من الاسلام في شيء أبداً . انما التصوف عبارة في حقيقة الأمر عن حب الله ورسوله الصادق بل الولوع بهما والتفاني في سبيلهما . والذي يقتضيه هذا الولوع والتفاني ألا ينحرف المسلم قيد شعرة عن اتباع أحكام الله ورسوله ﷺ . فليس التصوف الاسلامي الخالص بشيء مستقل عن الشريعة ، وإنما هو القيام بأحكامها بغاية من الأخلاص وصفاء النية وطهارة القلب .